

البيان.. والطريق المهجور^(١)

[١]

من أجل نعم الله على عباده: نعمة البيان، وقد امتنَّ الله على عباده بهذه النعمة، فذكرها في أشرف سياق، فقال تقَدَّستْ أسماؤه: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾.

ولا ينبغي أن يكون المراد بالبيان هنا مجرد الكشف عما في النفس لقضاء الحاجات واتصال مصالح العباد، لأن الكشف عما في النفس يؤديه الكلام وهيئة الحال والإشارة والعلامة، وليس المراد أيضاً بالبيان مطلق الكلام، لأن هذا مما يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يفضل بعضهم بعضاً فيه إلا بما يكون من سلامة مخارج الحروف، واستواء النطق، والبراءة من أسباب العيِّ والحصر والحُبسة.

لكن المراد بالبيان: الإحسان في تأدية المعاني، يقول أبو الحسن الرماني: «وليس يحسن أن يطلق اسم بيان على ما قُبِحَ من الكلام، لأن الله قد مدح البيان واعتد به في أياديه الجسام، قال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾، ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعني به إفهام المراد جاز»، النكت في إعجاز القرآن ص ٩٨.

وقد مدحوا البيان وعظموا شأنه، فقالوا: البيان بصر والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى، والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل، وقال

(١) مجلة «الهلal»، مارس ١٩٩٥م.

يونس بن حبيب: «ليس لعبي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حكَّ بيافوخه أعنان السماء»، راجع البيان والتبيين للجاحظ ٧٧/١، ثم انظر مقالة الشيخ عبد القاهر الجرجاني في فضل البيان، في دلائل الإعجاز ص ٥.

ووجوه الإحسان في تأدية المعاني كثيرة، ومناذحها واسعة، ولا يكاد يظفر بها إلا من وهب لطافة الحس وخفة الروح ورحابة النفس، والارتياح والطرب لمظاهر إبداع الله عزَّ وجلَّ في هذا الكون، وما بثه في ملكوت السموات والأرض، وما أجراه على السنة خلقه، أما «أهل الكثافة» وهم الذين امتحنهم الله بثقل الظل وركود الهواء، فما أبعدهم عن البيان والإحسان:

وهلَّك الفتى ألاَّ يَراح إلى الندى وألا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا

ثم إن هذه المواهب التي يمتن الله بها على من يشاء من عباده، لا بد لها لكي تؤتي ثمارها عند الأدباء وأرباب البيان، من طول دربة ومعالجة يأتيان بكثرة النظر في الأساليب العالية الشريفة، من بديع الشعر وكريم النثر، ثم معايشرة الأصفياء أصحاب الفطر السوية والطبائع النقية والفرار من مخالطة «أهل الكثافة»، فإن مجالسة الثقلاء حمى الروح كما قال بختيشوع بن جبريل للخليفة المأمون، لطائف الظرفاء لأبي منصور الثعالبي ص ٧٠.

ونحن أمة العرب أمة بيان وفصاحة، ولغتنا معينة على ذلك بما أودع فيها من خصائص شعرية في الحروف والأبنية والتراكيب، ثم هذه الثروة الهائلة من الأسماء والأفعال، والمترادف والمشارك والأضداد، ولغتنا معينة أيضاً على البيان والفصاحة بهذه القوانين الرحبة الواسعة من الحقيقة والمجاز، والسماحة في تبادل وظائف الأبنية، كالذي يقال من مجيء فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول وبمعنى مُفْعِل، وتبادل وظائف الأفراد والتثنية والجمع ووقوع بعضها موقع بعض، والتساهل في التعبير عن الأزمنة، كالتعبير عن الماضي بالمستقبل، وبالمستقبل عن الماضي، إذا اقترن بالفعل ما يدل على زمانه، ووقوع بعض حروف الجر مكان بعض، وتذكير ما حقه التأنيث وتأنيث ما حقه التذكير، والحمل على المعنى، والحمل على اللفظ،

وحرية التعامل مع الضمائر، غيبة وحضوراً فيما يعرف بالالتفات، والتعويل على القرائن والسياق في تخليص الكلام من كثير من الفضول والزوائد، وهو باب الحذف الذي يجعله ابن جني من باب «شجاعة العربية» وهو تعبير عجيب، انظره في كتابه الفذ: الخصائص ٢/ ٣٦٠، إلى سائر قوانين اللغة وأعرافها، حتى علم النحو الذي يظن به العسر والتشدد، ولو تأملته حق التأمل لوجدت فيه كثيراً من الرخص والإباحة، على ما قاله الأصمعي: «من عرف كلام العرب لم يكدر يلحن أحداً».

ولقد تضاوت هذه اللغة العربية الشريفة على ألسنة الشعراء والخطباء، شعراً شجى النغم، ونثراً حلوا الوقع، فيما بقي لنا من أدب الجاهلية. ثم كان مجلى هذه اللغة العزيزة كلام ربنا عز وجل، بما نزل به جبريل الأمين على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ، في هذا البيان الذي لا يطاوله بيان، ثم ألقى ربنا تباركت أسماؤه على لسان نبيه المصطفى بياناً عالياً آخر، هو ما نطق به ﷺ من جوامع الكلم: فصاحة صافية المورد، وبلاغة عذبة المشرع، ومنطقاً صائب الحجة.

وقد جرت لغتنا العربية بما حملته من أدب الجاهلية، وبيان الكتاب العزيز، والحديث الشريف، على أقلام الكتاب وألسنة المتكلمين وقصائد الشعراء: بياناً يأخذ منه الناس بما قدر لهم من رزق الله المقسم على خلقه، فتفاوتت حظوظهم في ذلك، فمنهم من أحسن، ومنهم من قارب، لكن البيان ظل هدفاً يسعى إليه، وغاية يشتد الناس في طلبها، ومعياراً يلجأ إليه النقاد في الحكم على الكلام وإعطاء الأدباء حقهم من التقديم والتأخير، ولعل أول من أصل هذا الفن هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حين صنع كتابه الذي جعل عنوانه دالاً بصريح اللفظ على الغاية التي تغياها منه، وكان كتاب الجاحظ هذا مع كتاب معاصره والراوي عنه أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة «عيون الأخبار»، هما الأساس الأول في إرساء قواعد هذا الفن «البيان» بذكر الأدوات الموصلة إليه والمعينة عليه، من ذكر كلام العرب وخطبها وشعرها ومحاوراتها وأجوبتها المسكتة، وتوالت الكتب في هذا الطريق، ككتب الأمالي والمجالس والمختارات

والحماسات، مع عناية ظاهرة باللغة والغريب، تمثلت في أمالي أبي علي القالي ومجالس أبي العباس ثعلب .

ولم تكن كتب هذا اللون من التأليف قاصرة على الأدباء واللغويين فقط، بل دخل فيها الحفاظ والفقهاء أيضاً، كالذي رأيناه من كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس»، لفيقه الأندلس الحافظ المحدث أبي عمر بن عبد البر القرطبي، صاحب كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، وصاحب «الاستيعاب في طبقات الأصحاب». وكتابه هذا «بهجة المجالس» من المجاميع الأدبية العظيمة، ويقول فيه ابن سعيد، بعدما ذكر مصنفاته في الفقه والحديث والتراجم: «مع أنه في الأدب فارس، وكفاك دليلاً على ذلك كتاب بهجة المجالس». المُعرب في حلى المغرب ٢/٤٠٨، وهذا ابن عبد البر الفقيه المحدث هو الذي جمع ديوان أبي العتاهية، وعن نسخته كانت نشرة الدكتور شكري فيصل رحمه الله .

وهكذا كان الأدب مشرعاً يردّه الناس جميعاً، وغبرت أجيال ونشأت أجيال، حتى جاء ابن خلدون في القرن التاسع ليخبرنا أن كتب الأدب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والأمالي — أو النوادر — لأبي علي القالي، ويريد ابن خلدون أن يقول: إن هذه الأصول هي مكونات الأديب .

البارودي والمرصفي :

وطويت أيام ونشرت أيام، حتى كان العصر الحديث، وجاء رجال البعث والإحياء، هؤلاء الذين ردوا الناس إلى أصولهم الأدبية، وكشفوا عن تلك المناجم الغنية الضاربة في التاريخ بعروقها، فكان الشاعر محمود سامي البارودي و«مختاراته»، والشيخ حسين المرصفي و«الوسيلة الأدبية»، والشيخ سيد بن علي المرصفي و«رغبة الأمل من شرح كتاب الكامل»، وما قرأه على تلاميذه من «شرح حماسة أبي تمام»، وبعدهما كان الشيخ حمزة فتح الله وكتابه الجيد «المواهب الفتحة»، فكانت هذه الآثار كلها زاداً ومدداً للجيل التالي .

ولقد كان من حسن حظنا نحن أبناء هذا الجيل أننا فتحنا عيوننا وعقولنا في أوائل الخمسينات، ورأينا القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها المحن والنائب، وكان من صنع الله لنا أننا نعمنا بشمرات دار الكتب المصرية: قراءة في قاعة المطالعة الشهيرة بها، واستعارة باشتراك زهيد متاح لطلبة العلم. وأخذنا نتضلع بالقراءة لتلاميذ مدرسة البعث والإحياء المذكورة، وفيما يتصل بالبيان كان هناك اسمان كبيران: مصطفى صادق الرافعي، ومصطفى لطفى المنفلوطي، وقد شق علينا الرافعي في أول الأمر.

ووجدنا في المنفلوطي واحة خصبة عامرة بالندى والأزاهير، فأى جنة فتحها لنا هذا المنفلوطي في ذلك الزمان؟ وكم دموع أراقها، وكم قلوب خفقت على بيانه الحلو الأسر الذي انساب في «العبرات» و «الشاعر أوسيرانو دي برجراك» و «الفضيلة» و «ماجدولين»، ولئن كنا قد فرغنا من المنفلوطي بعد حين، فإن أثره الضخم الذي لا ينسى أنه حبيب إلينا القراءة جملة، فإن هذه الليالي التي قضيناها مع بيانه المعجب الأخاذ لم تضع سدى، لأنها وثقت صلاتنا بالأدب عامة وبالبيان خاصة.

ومن عجب أن المنفلوطي هو الذي ردنا إلى الرافعي، وعند هذا الرافعي وجدنا دنيا أخرى حافلة بالغرائب والعجائب، لكن صورة الرافعي لم تأخذ حجمها الحقيقي عندي إلا بعد أن اتصلت بتراث الآباء والأجداد فيما قرأت وفيما نسخت وفيما حققت، وأيضاً حين توثقت علاقتي بصاحبه ووارث أدبه وعلمه أبي فهر محمود محمد شاكر، فعرفت أن هذا من ذاك، وأنها ذرية بعضها من بعض، وإن كنت أرى أن بيان أبي فهر لا يشبهه بيان، وأن علمه لا يقرن به علم، على ما فصلت في كلمتي عن كتابه الماتع «المتنبي» في الجزء الأول من «موسوعة عصر التنوير» التي أصدرها الهلال، ولو كتب أبو فهر الآن – وهو في هذه السن العالية – لزلزل الدنيا، ولرأيت ثم نعيماً وعلماً كبيراً، فهل تستجيب يا أبا فهر؟ وهل أنت مخرج ما عندك من «حديث الأحرف السبعة» و «مداخل إعجاز القرآن» و «كتاب الشعر»، شرح الله لك صدرك، وأمتع أهل الأدب ببقائك.

ولئن كانت مدرسة البيان قد عرفت يومئذ في كتابات الرافعي والمنفلوطي والزيات ومحمد صادق عنبر، فإن سائر الأدباء والكتاب لم يكونوا بعيدين عنها، لأن حسن البيان وتجويد العبارة كانا لازمين لكل كاتب يريد لكتابه أن تقرأ، ولكل مفكر يريد لأفكاره أن تذيع، فلقد كان الأدب ولا يزال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة انصبابها إلى السمع وتولجها في القلب واستيلائها على النفس، والبليغ يضع لسانه حيث أراد، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعسرها، و«حسن البيان يُري الظلماء كالنور» على ما قال الشاعر.

ولقد كنا في زمان الصبا نظن أن أسلوب «العقاد» معقد، حتى كبرنا واستطعنا أن نميز الخبيث من الطيب، فوقعنا عند «العقاد» على مناطق من البيان وحلاوة الأداء هي الغاية والمنتهى.

وكذلك سائر الكتّاب والأعلام ممن لا يصنفون مع الأدباء كانوا أصحاب فصاحة وبيان، فمكرم عبيد السياسي الشهير والمحامي الجهير كان أديباً وصاحب بيان، ثم كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم، وفتحي رضوان المحامي الضليع وأحد أقطاب الحزب الوطني كان كاتباً صاحب بيان، والدكتور أحمد عمار طبيب النساء الشهير كان لغوياً صاحب بيان، والدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام الشهير كان أديباً صاحب بيان، وهو صاحب القصة الشهيرة في الخمسينات «قرية ظالمة»، والدكتور محمد الصياد الجغرافي الكبير كان شاعراً صاحب بيان، وسيد إبراهيم الخطاط العظيم كان شاعراً صاحب بيان، وهو أحد مؤسسي جماعة أبولو، والدكتور حسن حبشي عالم التاريخ شاعر وصاحب بيان، والدكتور محمد يوسف حسن الجيولوجي الكبير، وعميد كلية العلوم بجامعة الأزهر سابقاً وعضو مجمع اللغة العربية الآن، أديب يحفظ شعر أبي العلاء حفظاً عالياً، وله في اللغة نظرات جواد نسعد بها في لجنة المعجم الكبير بالمجمع.

ومن وراء هؤلاء طوائف لا تحصى من الأدباء المجيدين الأغفال أصحاب

البيان، كنت تقرأ لهم في الصحيفة اليومية والمجلة الأسبوعية، ثم كنت تراهم في فصول المدارس الابتدائية والثانوية، يروّضون صغار التلاميذ على البيان، ويجمعون لهم «عناصر موضوع الإنشاء» الذي صار الآن «التعبير» ولا تعبير هناك ولا عبارة، ثم كانوا يخوضون بهم لجج بحار الشعر والنثر فيما كان يعرف بالمحفوظات والمطالعة.

حسن البيان :

وقد ذهبت تلك الأيام بحلاوتها ونضارتها وصرنا إلى هذا الزمان الذي زهد الناس فيه في حسن البيان، وهجروا طريقه هجراً يوشك أن يكون تاماً، وأصبحت أساليب كثير من الكتاب، ومن ينتسبون إلى الأدب الآن تدور في فلك ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة، أو العملة الورقية التي تهرأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدي، أو كالعملة الزائفة التي ليس لها رصيد في مصرف النفس، وإنما هي ألفاظ وتراكيب تُسوّد بها الصحف، تروح وتجيء، تتجاوزها عينك على عجل، لا تقف عندها، لأنك لا تجد فيها إمتاعاً، ولا تحس معها أنساً، فضلاً عما تجده في بعضها من ثقل وغثاء، تكاد تطبق على القلب وتسد مجرى النفس — وما أمر «الزخم» منك ببعيد — إلى هذه البلية المستحدثة، وهي بلية الغموض الذي يندفع فيه كثير من الأدباء الآن، وليس هو الغموض الذي يحرك النفس لتستخرج بحسن التأمل خبيء الكلام ومطوي المشاعر، ولكنه الغموض المظلم الذي يكد العقل، ويكون مجلبة للغم والكآبة، غموض العجز والحيرة.

وهذه الألفاظ والتراكيب التي يستعملها بعض أدباء هذا الزمان، أشبه بتقاليع (الموضة) تظهر ثم تختفي، لا تعرف ثباتاً ولا استقراراً، فقد كنا نسمع في الستينات — كما ذكرت في مقال سابق بالهلال — الوحدة الموضوعية، والمعاناة، وعمق التجربة والخلق وتراسل الحواس، والمونولوج الداخلي، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس. وآلآن نسمع: الإبداع وتكثيف التجربة، والزخم (والعياذ بالله) والطرح، والمنظومة والإشكالية والتناص والتماهي والتفجير والتفكيك... وهذا وأشباهه إنما هو كما قال ابن قتيبة منذ

(١٢٤٠) سنة في مقدمة أدب الكاتب: «ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغُمر — أي الجاهل — والحدث الغُرُّ قوله: الكون والفساد وسمع الكيان... راعه ما سمع، فظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل»، أو كما قال أبو السعادات ابن الشجري: «تهاويل فارغة من حقيقة» الأمالي ١/ ٥٦، ولا يغرنك أيها القارئ المبتدئ اجتماع الكتاب على هذه الألفاظ، وكثرة استعمالهم لها، فإن الاستعمال ليس بدليل على الحسن، كما يقول ضياء الدين ابن الأثير في المثل السائر ١/ ٢٢١.

إن كثيراً مما يكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورة الحروف والأبنية من الأسماء والأفعال، أما روح العربية وآمادها الرحبة الواسعة فلا تجددها في أسلوب مما تقرأ، ولا في كلام مما تسمع، إني أحس أحياناً أن هؤلاء الذين يكتبون أدباً عربياً لم يملوا بالقرآن ولا بالبيان النبوي، ولا بكلام العرب، فإن ثروتهم اللفظية محدودة جداً، وتصرفهم في وجوه الكلام قصير الخطو، منقطع النفس، ولذلك تأتي معانيهم هزيلة خفيفة. لأن ضيق الألفاظ يؤدي إلى ضيق المعاني، كما يقول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز.

ومن الكلام الحكيم للجاحظ في هذه الباب قوله: «والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل، لأنهم حين عدموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيراً» الحيوان ٣/ ٣٦٥.

وهؤلاء الذين يزعمون أنهم ورثة طه حسين لم يسيروا في طريق بيانه، ولم يحاكو حلاوة أدائه، وكان له في ذلك مستراد ومذهب، فانتماؤهم لطه حسين إذن انتماء كاذب وولاء منقوص.

وأيضاً هؤلاء الذين يتحدثون عن التنوير ورموز التنوير، لم يملوا بأدب أعلام هذا التنوير، ولم يسلكوا طرائقهم في معرفة العربية ورعاية قوانينها في حسن الأداء وجمال العبارة.

إن الذين يشكون الآن من «الأغاني الهابطة» لا ينبغي أن ينسوا أن هذه القضية مرتبطة بألوان الأدب الأخرى، وأن البيان كله من باب واحد، فيوم أن كان عندنا أدباء بيان كبار، كالمنفلوطي والزيات، كان عندنا كتاب أغان كبار، مثل أحمد رامى وييرم التونسى وعبد الفتاح مصطفى وحسين السيد، لأن كلام الناس ينزع بعضه إلى بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض، وقد أنشدتك أيها القارىء الكريم من قبل قول ابن الرومى :

«وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض»

ولن تجد مع كثرة الغبار إلا قذى العيون.

والآن إذا أردت أيها القارىء العزيز أن تعرف سر هذا التردى فى الكتابة، ومجافاة حسن البيان، والإعراض عن جمال العبارة، أعجزك أن ترده إلى سبب واحد أو سببين اثنين، وإنما هى أسباب كثيرة تداخلت وتشابكت، وسيأتىك حديثها — إن شاء الله — فى المقال التالى .

